الفصل الثالث
مستجلبات الرحمة

إن من مستجلبات الرحمة الاستغفار، فالاستغفار عنصر مهم لجلب رحمة الله تعالى، نلاحظ ذلك عند تأملنا للآيات في القرآن الكريم، بداية يدعو الله قريش أن تستغفر الله من كبرياء الجاهلية، التي ابتدعوها في مناسك الحج، ليردهم عن كل مايخالف تعاليم الإسلام.

ويفتح الاستغفار بابا واسعا للرحمة لمن ظلم نفسه، أو عمل سوءا، كما يفتحه للنصارى، ويظل مفتوحا إلى قيام الساعة، لعلهم يعودوا إلى حظيرة الإسلام، ويتركوا معتقداتهم الفاسدة، كذلك يجعل القرآن الاستغفار ضمانا لقبول الصدقات.

ويعطينا القرآن نموذجا حيا من الأمم السابقة، تتمثل في دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى الاستغفار مما هم عليهم من فساد إقتصادي لينالوا رحمة الله، ويوجهنا القرآن إلى إختيار الأوقات المحببة للإستغفار، وليرسخ ذلك المفهوم ويدرجه في شكل قصة ليعقوب عليه السلام، وهذا صالح عليه السلام يرغب قومه الاستغفار بعدم استعجالهم العذاب، حتى ينالوا رحمة الله تعالى، ويضرب لنا القرآن نموذجا وأسوة، ممثلا في استغفار موسى عليه السلام، فتناله رحمة الله، فمن رحمة الله بالمستغفرين أن يتوب عليهم، وقد أثنى الله تعالى ومدح المستغفرين حينما توسلوا إلى الله تعالى بإيمانهم لينالوا رحمة الله ومغفرته ففي قوله تعالى: (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[1]، قال الرازي: إعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا ربنا إننا ءامنا ثم إنهم قالوا بعد ذلك فاغفر لنا ذنوبنا وذلك يدل على أنهم توسلوا بمجرد الإيمان إلى طلب المغفرة والله تعالى حكى ذلك عنهم في معرض المدح لهم والثناء عليهم فدل هذا على أن العبد بمجرد الإيمان يستوجب الرحمة والمغفرة من الله[2].

هذا ما سنعرفه بالتفصيل في هذا المبحث بمشيئة الله تعالى.

---

[1] ـ أل عمران (16).
[2] ـ التفسير الكبير، الرازي، 174/7.

المبحث الأول : الاستغفار مستجلب لرحمة الله تعالى

1 ــ الرحمة بعد الاستغفار:

الإسلام دين مساواة، وركن الحج فرض من أجل ترسيخ هذا المبدأ، فلذلك أنزل الله تعالى الأمر بالمساواة، والاستغفار من كل ما يشوب مناسك الحج من شوائب.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]

استغفروه من تلك الكبرة الجاهلية، واستغفروه من كل ما مس الحج من مخالفات، ولو يسيرة هجست في النفس، أو نطق بها اللسان، مما نهى عنه من الرفث والفسوق والجدال.

وهكذا يردهم إلى استغفار الله من كل ما يخالف عن هذا التصور النظيف الرفيع[2]..

واستغفروا الله لذنوبكم في الموقف، إن الله غفور رحيم متجاوز عن ذنوبكم[3].

والغفور من أسماء الله عز وجل، وهو من قولك غفرت الشيء إذا غطيته، فكأن الغفور هو الساتر لعبده برحمته، أو الساتر لذنوب عباده[4].

وقالت فرقة المعنى: واستغفروا الله من فعلكم الذي كان مخالفا لسنة إبراهيم، في وقوفكم بقزح من المزدلفة دون عرفة[5].

أو واستغفروا الله من جاهليتكم في تغيير المناسك ونحوه، إن الله غفور رحيم، يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه[6]، وقد أمر عز وجل بالاستغفار، لأنها مواطنة ومظان القبول، ومساقط الرحمة[7].

ثم يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم، ورحمهم وغفر لهم[8].

---

1 ـ البقرة (199)
2 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 1/ 200
3 ـ تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث الشافعي، 1 / 160.
4 ـ زاد المسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، 1 / 214، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط3، 1404هـ / 1984م.
5 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 2 / 428.
6 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 1/ 487.
7 ـ تفسير الثعالبي، الثعالبي، 1 / 157.
8 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 1 / 520 ـ 521

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ [1]

يقول سيد قطب: والله تواب في كل وقت على من يتوب، والله رحيم في كل وقت على من يؤوب، وهو – سبحانه – يصف نفسه بصفته، ويعد العائدين إليه، المستغفرين من الذنب، قبول التوبة وإفاضة الرحمة، والذين يتناولهم هذا النص ابتداء، كان لديهم فرصة استغفار الرسول ﷺ وقد انقضت فرصتها، وبقي باب الله مفتوحا لا يغلق، ووعده قائما لا ينقض، فمن أراد فليقدم، ومن عزم فليتقدم[2].

ـــ وكذلك من يعمل أمرا قبيحا، يسوء به غيره، كاتهام بريء، أو يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة، ثم يتوب من ذنبه، يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [3].

قال في التسهيل: نزلت في شأن طعمة، ومن يعمل سوءا بسرقة الدرع، أو يظلم نفسه برميه غيره وجحوده، ثم يستغفر الله، يعني يتوب إلى الله، يجد الله غفورا، متجاوزا رحيما لمن اتقى الشرك[4].

ـــ وهذا موسى عليه السلام، يعترف بذنبه ويستغفر الله، فينال رحمة الله باستغفاره: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [5]

قال موسى في دعائه: إني ظلمت نفسي بقتل النفس، فاعف عني ولا تؤاخذني بخطيئتي، فغفر له، إنه تعالى المبالغ في المغفرة للعباد، الواسع الرحمة لهم.

فعفا الله لموسى عن ذنبه و لم يعاقبه به، (إنه هو الغفور الرحيم) إن الله هو الساتر على المنيبين إليه من ذنوبهم على ذنوبهم، المتفضل عليهم بالعفو عنها، الرحيم للناس أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد ما تابوا منها[6].

ـــ وهؤلاء النصارى (زعموا أن الله ثالث ثلاثة، الله وعيسى ومريم، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى، كيف قبلوا هذه المقالة

1 ـ النساء (64)
2 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 1/ 695 ـ 696
3 ـ النساء 110
4 ـ بحر العلوم، أبو الليث السمرقندي، 1/ 362.
5 ـ القصص (16)
6 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 20/ 47

الشنعاء والعقيدة القبيحة، كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق، كيف خفي عليهم رب العالمين)[1]، فإذا لم ينتهوا عن هذا السخف، فسوف يصيبهم عذاب أليم:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

قال في التيسير: (ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده، فقال: (أفلا يتوبون إلى الله) أي يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه، من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله ـــ عما كانوا يقولونه (ويستغفرونه) عن ما صدر منهم، (والله غفور رحيم) أي يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات)[3].

2 ـــ الحث على الاستغفار بعد أفعال الطاعة والخير لنيل الرحمة:

وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلا، أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته فإنه هالك[4]، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5].

---

1 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،عبد الرحمن بن ناصر السعدي، 1 / 240، تحقيق: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، 1421هـ / 2000م.
2 ـ المائدة 73ـ 74
3 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،عبد الرحمن بن ناصر السعدي، 1 / 240، تحقيق: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، 1421هـ / 2000م.
4 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1 / 895.
5 ـ المزمل (20)

3 ـــ نماذج من دعوة الأنبياء لقومهم إلى الاستغفار لنيل رحمة الله:

ـــ هذا صالح عليه السلام يدعو قومه إلى الاستغفار ليرحمهم الله:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ: لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1]

وهذا صالح عليه السلام يقول لقومه: يا قوم لأي شيء تستعجلون بعذاب الله قبل الرحمة.. وعن مجاهد قوله: (قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة) قال: السيئة العذاب، قبل الحسنة: قبل الرحمة.. وعن مجاهد قال: يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قال: بالعذاب، قبل الحسنة قال: العافية، وقوله: (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ):هلا تتوبون إلى الله من كفركم، فيغفر لكم ربكم عظيم جرمكم، ويصفح لكم عن عقوبته إياكم، على ما قد أتيتم من عظيم الخطيئة، (لعلكم ترحمون): ليرحمكم ربكم باستغفاركم إياه من كفركم[2].

وقال في فتح القدير: يقول صالح عليه السلام: للفريق الكافر منهم منكرا عليهم، لِمَ تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدمون الكفر الذي يجلب إليكم العقوبة، هلا تستغفرون الله وتتوبون إليه من الشرك، رجاء أن ترحموا، أوكي ترحموا فلا تعذبوا، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر[3]، أو لعلكم ترحمون بالإجابة[4].

ـــ وهذا شعيب عليه السلام ينصح قومه بالاستغفار ليرحمهم الله، فقال: لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار، وقوم صالح بالرجفة، وما ديار الظالمين من قوم لوط بمكان بعيد، أفلا تتعظون وتعتبرون؟، ثم قال لهم شعيب عليه السلام: استغفروا ربكم من جميع الذنوب، ثم توبوا إليه توبة نصوحا.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[5].

---

1 ـ النمل (46).
2ـ انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 19 / 171.
3 ـ فتح القدير، الشوكاني، 4 / 143.
4 ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، 3/ 216.
5 ـ هود (90).

واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه عما أنتم عليه، إن ربي رحيم عظيم الرحمة للتائبين، ودود فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغ المودة بمن يوده، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار[1].

(وهو الودود) أيضا أي المحبوب، وقيل: الودود الحبيب، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين على كونه وادًا لأوليائه ومودودا لهم، فأحدهما بالوضع والآخر باللزوم، فهو الحبيب المحب لأوليائه، يحبهم ويحبونه، وقال شعيب عليه السلام: إن ربي رحيم ودود.

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى في ذلك:

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه، ولو كان منه ما كان[2].

واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه... إن ربي رحيم، عظيم الرحمة للتائبين، ودود مبالغ في فعل ما يفعل، البليغ المودة بمن يوده من اللطف والإحسان، وهذا تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة والحث عليهما[3].

ـــ وهذا يعقوب عليه السلام، يعد بنيه بأن يستغفر لهم الله، لتنالهم رحمة الله، عندما قالوا له: يا أبانا سل لنا ربك يعف عنا، ويستر علينا ذنوبنا التي أذنبناها فيك وفي يوسف، فلا يعاقبنا بها في القيامة، إنا كنا خاطئين فيما فعلنا به، فقد اعترفنا بذنوبنا، قال لهم: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[4].

قال: يعقوب سوف أسأل ربي أن يعفو عنكم ذنوبكم التي أذنبتموها فيَّ وفي يوسف، إن ربي هو الساتر على ذنوب التائبين إليه من ذنوبهم، الرحيم بهم أن يعذبهم بعد توبتهم منها[5].

---

1 ـ تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، 3 / 256.
2 ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم، 1/ 119، دار الفكر ـ دمشق، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، 1398هـ/1978م.
3 ـ انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي، أبو السعود، 235/4.
4 ـ يوسف (98).
5 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري 64/13، 65.

المبحث الثاني : باب التوبة مستجلب لرحمة الله تعالى

باب التوبة باب مفتوح لاستجلاب رحمة الله تعالى، يقول الطبري في تعريف التوبة: **أما التوبة** فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوبٍ، فتوبة العبد إلى ربه أوبته مما يكرهه الله منه، بالندم عليه والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه، وتوبة الرب على عبده عوده عليه بالعفو له عن جرمه، والصفح له عن عقوبة ذنبه، مغفرة له منه وتفضلاً عليه[1].

وأما معنى التواب وهو اسم من أسماء الله تعالى، يقول القرطبي: وإنما قيل لله عز وجل تواب، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده، لكثرة من يتوب إليه[2].

وأما قوله إنك أنت التواب الرحيم فإنه يعني به إنك أنت العائد على عبادك بالفضل، والمتفضل عليهم بالعفو والغفران، الرحيم بهم المستنقذ من تشاء منهم برحمتك من هلكته، المنجي من تريد نجاته منهم، برأفتك من سخطك[3].

إن الله كان توابا مبالغا في قبول التوبة، رحيما واسع الرحمة وهو تعليل للأمر بالإعراض[4].

والله تعالى يرغب عباده في التوبة، عبر آيات بينات، ويظل بابها مفتوحا عسى أن يعود هذا الإنسان إلى ربه، لينال رضاه ورحمته.

فالتوبة باب من أبواب الرحمة، فالتائب تدركه رحمة الله تعالى، بل إن الله لأشد فرحا من توبة عبده إليه، ففي هذا المبحث سنستعرض الآيات التي تبين أن التوبة يمكن أن يستجلب بها العبد رحمة ربه عز وجل.

1 ـــ من رحمة الله أن يعفو عن التائبين:

لقد كان أهل الكتاب يعرفون مما بين أيديهم من الكتاب مدى ما في رسالة محمدﷺ من حق، ومدى ما في الأوامر التي يبلغها من صدق، ومع هذا يكتمون هذا الذي بيّنه الله لهم في الكتاب، فهم وأمثالهم في أي زمان، ممن يكتمون الحق الذي أنزله الله، لسبب من

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 1/ 555.
2 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 1/ 326.
3 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 1/ 556.
4 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،لأبي السعود، 2 / 155.

أسباب الكتمان الكثيرة... أولئك الخلق يلعنهم الله فيطردهم من رحمته، ويطاردهم اللاعنون من كل صوب، فهم هكذا مطاردون من الله ومن عباده في كل مكان..

هؤلاء يفتح القرآن لهم هذه النافذة المضيئة – نافذة التوبة – يفتحها فتنسم نسمة الأمل في الصدور، وتقود القلوب إلى مصدر النور، فلا تيئس من رحمة الله، ولا تقنط من عفوه، فمن شاء فليرجع إلى الحمى الآمن، صادق النية، وآية صدق التوبة الإصلاح في العمل، والتبيين في القول، وإعلان الحق والاعتراف به والعمل بمقتضاه، ثم ليثق برحمة الله وقبوله للتوبة، وهو يقول: وأنا التواب الرحيم وهو أصدق القائلين[1]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ، إِلاّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2].

إلا الذين تابوا: عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه، وأصلحوا: ما أفسدوا بالتدارك، وبينوا: ما بينه الله في كتابهم، لتتم توبتهم، وقيل ما أحدثوه من التوبة ليمحوا به سمة الكفر عن أنفسهم ويقتدي بهم أضرابهم، فأولئك أتوب عليهم: بالقبول والمغفرة، وأنا التواب الرحيم: المبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة[3]، وأنا الذي أرجع بقلوب عبيدي المنصرفة عني إليَّ، والرّادها بعد إدبارها عن طاعتي إلى طلب محبتي، والرحيم: بالمقبلين بعد إقبالهم إليّ أتغمدهم مني بعفوِ، وأصفح عن عظيم ما كانوا اجترموا، فيما بيني وبينهم بفضل رحمتي لهم[4].

ـــ وباب التوبة مفتوح لمن فعل الفاحشة، فإن تاب وأصلح فسيجد الله عائد عليه بالفضل، رحيم به منجيه من الهلكة، والخسران:

قال تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[5]

قال ابن كثير: (واللذان يفعلان الفاحشة (فآذوهما) بالشتم والتعيير، والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم[6]، نزلت في الرجل والمرأة إذا

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 1/ 150 ـ 151.
2 ـ البقرة (159).
3 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 1/ 433 ـ 334.
4 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 2 / 57.
5 ـ النساء (116).
6 ـ وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير رضي الله عنهما.

زنيا[1]، فإن أقلعا ونزعا عما كانا عليه، وصلحت أعمالهما وحسنت، فلا تعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب لـــه)[2]، وقد ثبت في الـــصحيحين (إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، أي لا يعيرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت) [3]، إن الله كان (توابا رحيما) قال الطبري: فإنه يعني أن الله لم يزل راجعا لعبيده إلى ما يحبون، إذا هم راجعوا ما يحب منهم من طاعته، رحيما بهـــم يعني ذا رحمة ورأفة[4].

ويقول سيد قطب: واللمسة الثانية في هذه الإيماءة، هي توجيه قلوب العباد للاقتبـــاس من خُلق الله والتعامل فيما بينهم بهذا الخُلق، وإذا كان الله توابا رحيما، فينبغـــي لهـــم أن يكونوا هم فيما بينهم متسامحين رحماء؛ أمام الذنب الذي سلف، وأعقبه التوبة والإصلاح، إنه ليس تسامحا في الجريمة، وليس رحمة بالفاحشين، فهنا لا تسامح ولا رحمـــة، ولكـــن سماحة ورحمة بالتائبين المتطهرين المصلحين، وقبولهم في المجتمع، وعدم تذكيرهم وتعييرهم بما كان منهم من ذنب تابوا عنه، وتطهروا منه، وأصلحوا حالهم بعده، فينبغي – حينئذ – مساعدتهم على استئناف حياة طيبة نظيفة كريمة، ونسيان جريمتهم حتى لا تثير في نفوسهم التأذي كلما واجهوا المجتمع بها؛ مما قد يحمل بعضهم على الانتكاس والارتكاس، واللجاج في الخطيئة، وخسارة أنفسهم في الدنيا والآخرة، والإفساد في الأرض، وتلويث المجتمـــع، والنقمة عليه في ذات الأوان[5].

ـــ ويحث الله الأعراب المتخلفين عن رسول الله ﷺ إلى سرعة التوبة، لتنالهم رحمـــة الله فيقول لهم:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُـــوراً رَحِيماً﴾ [6]، فيقول لهم: ولله سلطان السموات والأرض، فلا أحد يقدر أيها المنافقون على دفعه عما أراد بكم من تعذيب على نفاقكم إن أصررتم عليه، أو منْعه من عفوه عنكم إن عفا، إن أنتم تبتم من نفاقكم وكفركم، وهذا من الله جل ثناؤه حث لهـــؤلاء الأعـــراب

1 ـ وهو قول عكرمة وعطاء والحسن وعبد الله بن كثير.
2 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 1 / 463.
3 ـ صحيح البخاري، البخاري، 6813 ـ صحيح مسلم، مسلم، 1703.
4 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 4 / 298.
5 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 1 / 598.
6 ـ الفتح (14).

المتخلفين عن رسول الله ﷺ على التوبة، والمراجعة إلى أمر الله في طاعة رسوله ﷺ، يقول لهم بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله ﷺ فإن الله يغفر للتائبين، (وكان الله غفورا رحيما) يقول: ولم يزل الله ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومعاصيهم من عباده وذا رحمة بهم، أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها[1].

2 ـــ التوفيق إلى التوبة رحمة من الله تعالى:

عندما أمر الله تعالى المؤمنين، بأن يقاتلوا المشركين، أينما وجدوا، ويحاصروهم، ويضيقوا عليهم، بعد انتهاء مدة الإرجاء، وإنتهاء الأشهر الحرم، فتح الله بابا واسعا لهؤلاء المشركين، وهو باب التوبة لعلهم يرجعون عن شركهم، قال تعالى:

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]، ولا يزال المؤمنون على هذا الأمر، حتى يتوبوا من شركهم، ولهذا قال: (فإن تابوا) من شركهم، (وأقاموا الصلاة) أي أدوها بحقوقها، (وآتوا الزكاة) لمستحقيها فاتركوهم وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، (إن الله غفور رحيم) يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم[3].

ـــ وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه[4]، في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلاَّ أَخَذَهَا اللّهُ بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ قَلوصة، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ، أَوْ أَعْظَمَ»[5]، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [6]، وهذا خبر من الله تعالى، أخبر المؤمنين به أن قبول توبة من تاب من المنافقين، وأخذ الصدقة من أموالهم إذا أعطوها، ليس إلى نبي الله ﷺ، فيوجهوا توبتهم وصدقتهم إلى الله، ويقصدوا بذلك قصد وجهه دون محمد وغيره، ويخلصوا التوبة له، ويريدوه

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 26 / 79.
2 ـ التوبة (5).
3 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1 / 329.
4 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 2 / 387.
5 ـ صحيح مسلم، مسلم، 7 / 83، برقم: 2296.
6 ـ التوبة (104).

بصدقتهم ويعلموا أن الله هو التواب الرحيم، المرجع بعبيده إلى العفو عنه إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم، إذا هم أنابوا إلى رضاه من عقابه[1].

هكذا الله سبحانه وتعالى يقبل توبة عباده، ويفرح بتوبتهم، فلا يمكننا تصور هذا الفرح، بقدر ما يصفه لنا ذلك الحديث، وتقريبا لأفهامنا عن هذا التحول العظيم، الذي يبديه العبد اتجاه ربه، ومدى تلقي الله تعالى هذا الحدث، ولما يحمل من معاني الرحمة، التي تفيض عليه وتغمره! [2].

أخرج الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (لله أفرح بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها)[3]، وأخرج ابن ماجة في سننه عَنْ أَبِي سَعِيد[4] ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ، فَالْتَمَسَهَا، حَتَّى إِذَا أَعْيَى، تَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةَ الرَّاحِلَةِ حَيْثُ فَقَدَهَا، فَكَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا هُوَ بِرَاحِلَتِهِ».[5]

3 ـــ نماذج من الذين تاب الله عليهم ورحمهم:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [6]، قال الزمخشري[7]: تاب الله على النبي كقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 11 / 18 ـ 19.
2 ـ الدر المنثور، السيوطي، 7 / 351.
3 ـ سنن الترمذي، الترمذي، 9 / 508، برقم: 3677.
4 ـ **أبو سعيد الخدري:** هو الصحابي الجليل سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد الخدري، مشهور بكنيته، غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة غزوة، وكان ممن حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سننا كثيرة، وروى عنه علما جما، وكان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم، كما كان من أفقه أحداث الصاحبة، توفي سنة أربع وسبعين هجرية، انظر(الإصابة في تمييز الصحابة، وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 35/2، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1328هـ/1938م، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين ابن الأثير الجزري(ت:630هـ)، تحقيق وتعليق: محمد ابراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور، 142/6، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت. بدون تاريخ.
5 ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، 2 / 1419، برقم: 4341.
6 ـ التوبة (117).
7 ـ **الزمخشري:** محمود بن عمر بن محمد بن عمر العلامة أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي،(467هـ ـ538هـ)، النحوي اللغوي المتكلم المعتزلي المفسر يلقب جار الله لأنه جاور بمكة زمانا، ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر قرية من قرى خوارزم وقدم بغداد وسمع من أبي الخطاب بن البطر وغيره وحدث وأجاز للسلفي وزينب الشعرية، قال ابن السمعاني كان ممن برع في الأدب والنحو واللغة لقى الكبار وصنف التصانيف ودخل خراسان عدة نوب وما دخل بلدا إلا وإجتمعوا عليه وتلمذوا له وكان علامة الأدب ونسابة العرب تضرب إليه أكباد الإبل، وقال ابن خلكان كان إمام عصره وكان متظاهرا بالاعتزال داعية إليه، له التصانيف البديعة منها الكشاف في التفسير والفائق في غريب الحديث وأساس البلاغة وربيع الأبرار ونصوص الأخبار في الحكايات ومتشابه أسماء الرواة و الرائض في الفرائض والمنهاج في الأصول و المفصل في النحو

تأخر﴾[1]، وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[2]، وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح، وقيل معناه تاب الله عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه[3].

قال الرازي: (فالله تعالى تاب على النبي والمهاجرين والأنصار، الذين (خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة تبوك، وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدد مما يدعو إلى التخلف، فاستعانوا بالله تعالى وقاموا بذلك، من بعد ما كادت تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم[4]، (ثم تاب عليهم)، قال ابن عباس: يريد ازداد عنهم رضا)[5]، (إنه بهم رؤوف رحيم) ومن رأفته ورحمته أن منّ عليهم بالتوبة وقبلها منهم وثبتهم عليها[6].

وقال في أضواء البيان: فإنه جاء فيه بالباء المتعلقة بالرحيم الجارة للضمير الواقع على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، وتوبته عليهم رحمة في الدنيا وإن كانت سبب رحمة الآخرة أيضا، والعلم عند الله تعالى[7].

ـــ وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[8].

قال الزمخشري: الثلاثة هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، ومعنى خلفوا خلفوا عن الغزو، وقيل عن أبي لبابة وأصحابه حين تيب عليهم بعدهم[9].

والأنموذج فيه= =مختصر والأحاجي النحوية وغير ذلك، مات ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، انظر(طبقات المفسرين - السيوطي 120/1- 121، رقم الترجمة: 127).

1 - الفتح (2).

2 - غافر (55)، ومحمد (19).

3 - الكشاف، الزمخشري، 302/2.

4 - قال السعدي: وزيغ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفرا وإن كان في شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها إما قصر عن فعلها أو فعلها على غير الوجه الشرعي. انظر(تيسير الكريم المنان، السعدي، 354/1).

5 - التفسير الكبير، الرازي، 171/16.

6 - انظر تيسير الكريم الرحمن، السعدي، 354/1.

7 - انظر أضواء البيان، الشنقيطي، 1/ 6.

8 - التوبة (118).

9 - الكشاف، الزمخشري، 303/2.

قال في التيسير: (هؤلاء الذين خلفوا قال السعدي: حزنوا حزنا عظيما وضاقت عليهم الأرض على سعتها ورحبها، وضاقت عليهم أنفسهم التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم الفضاء الواسع والمحبوب، الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء، و تيقنوا وعرفوا بحالهم أنه لا ينجي من الشدائد، ويلجأ إليه إلا الله وحده لا شريك به، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة، ثم أذن في توبتهم ووفقهم لها، لتقع منهم فيتوب الله عليهم، إن الله كثير التوبة والعفو والغفران عن الزلات والنقصان، (الرحيم) وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية، وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتنّ عليهم بها حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها، ومنها لطف الله بهم وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة، ومنها أن العبادة الشاقة على النفس لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر، ومنها أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب ولا يحرج إذا فعله فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة، ومنها أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقا تاما، انقطع عن المخلوقين، ومنها أن من لطف الله بالثلاثة أن وسمهم بوسم ليس بعار عليهم فقال: (خلفوا)، إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عن من بت في قبول عذرهم، أو في رده وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير وهذا لم يقل تخلفوا ومنها أن الله تعالى من عليهم بالصدق ولهذا أمر بالاقتداء بهم)[1].

4 ـــ الترغيب في التوبة لنيل رحمة الله:

والله تعالى يرغبنا في التوبة عمَّا نهانا عنه، لننال رحمة الله تعالى، لأن التوبة باب مفتوح لعباده ليدخلوا منه في رحمة الله، فالله تواب رحيم لمن اتقى ما نهى عنه، وتاب مما فرط منه[2]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا

1 ـ انظر تيسير الكريم الرحمن، السعدي، 354/1 ـ 355.
2 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 219/5

تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[1]، قال التيسير: والتواب الذي يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده حيث دعاهم إلى ما ينفعهم وقبل منهم التوبة[2]، وقال في روح المعاني: وقال ابن حجر عليه الرحمة: إنه تعالى ختم كلا من الآيتين بذكر التوبة رحمة بعباده وتعطفا عليهم[3].

ورغب الله تعالى في التوبة لمن ارتكب الكبائر، وبيّن أن باب التوبة مفتوحا لهم، وإذا تابوا بدّل الله سيئاتهم حسنات، وهذا من رحمته بهم، قال الرازي: اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر أن من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا، ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الأشياء من العقاب، ثم استثنى من جملتهم التائب[4]،قال تعالى: ﴿إِلاّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[5]، ثم قال تعالى حاثا على التوبة: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾[6]، و يصف السعدي توبة العبد في هذه الآية بقوله: فليعلم أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فليخلص فيها وليخلصّها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة واتباعها على أفضل الوجوه وأجلّها، ليقدم على من تاب إليه فيوفيه أجره بحسب كمالها[7].

هذا هو باب التوبة مفتوح من التواب الرحيم، الرجّاع على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا، إنه الرحيم الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم، لطفا وكرما، وهذا حكم التائب من الذنب.

---

1 ـ الحجرات (12).
2 ـ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، 802/1.
3 ـ روح المعاني، الألوسي، 161/26.
4 ـ التفسير الكبير، الرازي، 96/24.
5 ـ الفرقان (70).
6 ـ الفرقان (71).
7 ـ تيسير الكريم الرحمن، في تفسير كلام المنان، السعدي، 587/1.

إنه توابا رحيما كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان، الذي من إحسانه وفقهم للتوبة، وقبلها منهم وسامحهم عما صدر منهم، فمن تاب إليه تاب عليه ولو تكررت منه المعصية مرارا، ولايمل من التوبة على عباده حتى يملوا هم، سبحانه وسعت رحمته كل شيء، كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآياته ويتبعون رسوله[1].

إنه التواب الرحيم يدعوهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم برحمته أن وفقهم لهذه التوبة، ثم قبلها منهم، قال ابن القيم: (فإذا اعترف العبد بالذنب وندم وتضرع واستكان وفزع إلى خالقه بالاستغفار، رفع عنه العتاب وغفر ذنبه، وقبلت توبته وأوبته، وفتح له من الرحمة والهداية كل باب)[2].

فسبحانه المحب التواب لأوليائه التوابين يحبهم ويحبونه، فما ألطف اقتران اسم التواب بالرحيم، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، ولكن الله تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك كله، فإنه سبحانه إذا تاب إليه عبده أحبه، ولو كان فيه ماكان.

1 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 2/ 77- و4 / 171- و11 / 351- و19 / 587.
2 ـ انظر إغاثة اللهفان عن مصائد الشيطان، ابن القيم، 2 / 203 ، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة ـ ببروت، ط2، 1395هـ / 1975م، بالتصرف.

المبحث الثالث : الأعمال المستجلبة لرحمة الله تعالى

هناك كثيرٌ من الأعمال المستجلبة لرحمة الله تعالى، منها الهجرة في سبيل الله، مع الرجاء في رحمة الله، ثم يذكر المشركين أن الذين يعبدونهم هم أنفسهم يبتغون القـــرب إلى الله، ويرجون رحمته، ثم يعطي الله نموذجا حيا للذين يرجون رحمة الله، وهم الذين يحيون ليلهم قائمين لله، يحذرون الآخرة، وينال الرحمة من اتقى وأطاع الله ورسوله، ويرغـــب الله في الرحمة بالعبادة والخوف من عذابه، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأخذ العبرة بمـــا جـــرى للأمم السابقة، ومنها الكف عن محاربة المسلمين والدخول في الإســـلام، ويـــضاعف الله الرحمة لمن لم يفرق بين الرسل، وهو مؤمن برسول الله ﷺ، وكذلك الموت في سبيل الله، وتنال الرحمة بالزواج، وينال الرحمة من أصلح واتقى في تمسكه بالعدل بين الناس أو بـــين النساء، ومن تحلى بخلق والعفو والصفح ، ورحمة الله قريب من المطيعين، ينالها من اتقى.

كل هذه الأعمال مستجلبة لرحمة الله تعالى، مصحوبة بالرجاء في نيل رحمة الله، نسأل الله أن يوفقنا للأخذ بها والعمل بها.

1 ــ رجاء الرحمة يكون بعد القيام بأسباب السعادة:

إن الذي يرجو رحمة الله، ويرجو ثوابه عليه أن يأتي بالأسباب الموجبة إلى الـــسعادة، وهو يعلم أن العمل وحده غير كاف لدخوله الجنة، كما في الحديث، قـــال تعـــالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (1).

هذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف مـــا مـــع الإنسان من الربح والخسران.

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمـــة، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتمن وغرور، وهو دال علـــى ضـــعف همـــة صاحبه، ونقص عقله بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي

1 - البقرة (118).

ونحو ذلك، وفي قوله أولئك يرجون رحمة الله، إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به، لا ينبغي لـــه أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبـــول أعماله، ومغفرة ذنوبه وستر عيوبه، ولهذا قال: (والله غفور) أي لمن تاب توبة نـــصوحا، رحيم وسعت رحمته كل شيء، وعم جوده وإحسانه كل حي، وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة حصل له مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله.

قال في التيسير: (وإذا حصلت لـــه المغفرة، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب التي قد غفرت واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة، حصل على كل خير في الدنيا والآخرة، بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم)[1].

والله غفور رحيم يحقق لهم رجاءهم، إذا ماتوا على الإيمان والعمل الصالح[2]، غفور لما فعلوا من خطأ وقلة احتياط، رحيم بإجزال الأجر والثواب[3].

ويبين الله تعالى للمشركين أن الذين يدعونهم، وأنهم آلهة يعبدونهم، فأولئك الآلهة الذين يدعونهم من دون الله، هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة، فكيف تعبدونهم معه؟ وهم يرجون بعبادتهم لله، أن يدخلهم جنته سبحانه وتعالى، ويخافون عقابه ويتسابقون إلى رضاه، فإن عذابه عز وجل شديد ينبغي أن يحذر منه، ويخاف مـــن وقوعه وحصوله، فلماذا أنتم أيها المشركون، لا تطلبون من الله القربة، وتخافونه مثلما هم يخافون الله؟ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِـــيلَةَ أَيُّهُـــمْ أَقْـــرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾[4].

يعني الذين يدعونهم المشركون أنهم آلهة يعبدونهم، قال ابن عباس ومجاهد: وهم عيسى وأمه وعزير والملائكة، والشمس والقمر والنجوم، يطلبون إلى ربهـــم القربـــة ـــ وقيـــل الوسيلة: الدرجة العليا ـــ أي يتضرعون إلى الله في طلب الدرجة العليا، وقيل الوســـيلة: كلما يتقرب به إلى الله تعالى، ينظرون أيهم أقرب إلى الله، فيتوسلون به، وقال الزجـــاج: أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى، ويتقرب إليه بالعمل الصالح، ويرجون رحمته، أي

1 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1 / 98.
2 ـ التفسير الكبير، الرازي،34/6.
3 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 1 / 503.
4 ـ الإسراء (57).

جنته، و يطلبون منه الحذر، وقال عبد الله بن مسعود: نزلت الآية في نفر من العرب، كانوا يعبدون نفرا من الجن، فأسلم الجنيون و لم يعلم الإنس الذين كانوا يعبدونهم بإسلامهم، فتمسكوا بعبادتهم، فعيرهم الله وأنزل هذه الآية[1].

ويجب على المؤمن أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله، فتراه يتجافى جنبه عن المضاع، خوفا من عقاب الله، وطمعا في رحمته، يؤدي ما عليه، وزيادة على ذلك يقوم بين يدي الله في جوف الليل، ضارعا إليه بخشوع، مثل هذا الصنف من المؤمنين يمدحه الله لأنه الأفضل، ويباهي به عباده، إنه مثلا للمطيعين، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[2].

أي أمن هو مطيع كمن هو عاص، والقانت المطيع لله[3]، والمعنى:

أمن هو قانت آناء الليل أفضل أم من جعل لله أندادا، والتقدير الذي هو قانت خير، (آناء الليل) قال الحسن: ساعاته أوله وأوسطه وآخره، وعن بن عباس: آناء الليل جوف الليل، قال بن عباس، من أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة، فليره الله في ظلمة الليل، (يحذر الآخرة) قال سعيد بن جبير: أي عذاب الآخرة، (ويرجوا رحمة ربه) أي نعيم الجنة[4].

ودلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله، ثم الرجاء إذا جاوز حده يكون أمنا، والخوف إذا جاوز حده يكون أياما، وقد قال الله تعالى: (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) وقال: (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) فيجب أن لا يجاوز أحدهما حده[5].

وهذا رسول الله ﷺ يدعو للزوجين المتحريان قيام الليل بالرحمة ويمدحهما، عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «رَحِمَ الله رَجُلاً قامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى

1 ـ معالم التنزيل، البغوي، 3 / 120.
2 ـ الزمر (9).
3 ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، 4 / 49.
4 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 15 / 238 ـ 240.
5 ـ مدارك التنزيل، النسفي، 4 / 49.

وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»[1].

2 ـــ الرحمة في تقوى الله وطاعته وطاعة ورسوله:

أمر تعالى عباده بأن يجعلوا بينهم وبين النار وقاية، ولا يكون ذلك إلا بتقوى الله تعالى، باجتناب ما نهى عنه، وإتيان ما أمر به، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ[2] قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ)[3]، وأمرهم بطاعته وطاعة رسولهﷺ قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۞ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4]، فاتقوا النار بترك ما يوجب دخولها، من الكفر والمعاصي على اختلاف درجاتها، فإن المعاصي كلها – وخصوصا المعاصي الكبار – تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار، ويقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة، توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وحصول الرحمة، ولهذا قال: (وأطيعوا الله والرسول) بفعل الأوامر وامتثالها، واجتناب النواهي، (لعلكم ترحمون) فطاعة الله وطاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة[5].

فامر الله تعالى المؤمنين أن: أطيعوا الله والرسول، لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله.

ـــ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [6].

قال في فتح القدير: أي يا من صدقتم بالله، اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ودوموا واثبتوا على الإيمان، يعطكم ضعفين من رحمته[7]، قال الزمخشري: (أي لإيمانكم

1 ـ صحيح ابن خزيمة، ابن خزيمة، 183/2، كتاب الصلاة، برقم: 1148.
2 ـ **عدي بن حاتم** بن عبد الله الطائي، أبو طريف، صحابي، أقام بالكوفة، وتوفي فيها سنة 68هـ.
3 ـ صحيح مسلم، مسلم، 7/ 86، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو بكلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، برقم: 2300.
4 ـ آل عمران 131 ـ 132.
5 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي،1 / 148.
6 ـ الحديد 28.
7 ـ فتح القدير، الشوكاني، 5 / 180.

بمحمد وإيمانكم بمن قبله)[1]، (وعن ابن عمر في قوله تعالى: (يؤتكم كفلين من رحمته) قال: الكفل ثلاثمائة جزء وخمسون جزءا من رحمة الله)[2].

ويجعل لكم نورا تمشون به على الصراط، كما قال: (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)[3]، وقيل ويجعل لكم سبيلا واضحا في الدين تهتدون به، (وعن ابن عباس قال القرآن واتباع النبي ﷺ)، ويغفر لكم ما سلف من ذنوبكم، (والله غفور رحيم) أي بليغ المغفرة والرحمة[4].

أو يصفح عنكم ويستر عليكم ذنوبكم، والله ذو مغفرة ورحمة لا يعذب من تاب[5].

ـــ ويدعو الله عباده إلى أن يتقوه، ليرحمهم، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[6]، والتقوى هنا باجتناب ما نهى الله عنه، لينال المؤمن رحمة ربه، قال الشوكاني: واتقوا الله بترك ما أمركم بإجتنابه إن الله تواب رحيم لمن اتقاه وتاب عما فرط منه من الذنب ومخالفة الأمر[7].

ـــ ويبين الله تعالى للأعراب الذين قالوا آمنا، بأنهم أسلموا، ومن كرم الله عليهم اقتضى أن يجازيهم على أعمالهم، ولا ينقص منها شيئا، بهذا الإسلام الظاهر، فتحسب لهم أعمالهم الصالحة، فلا تضيع كما تضيع أعمال الكفار، بشرط أن يطيعوا الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[8].

ذلك أن الله أقرب إلى المغفرة والرحمة، فيقبل من العبد أول خطوة، ويرضى منه الطاعة والتسليم إلى أن يستشعر قلبه الإيمان والطمأنينة: إن الله غفور رحيم[9].

---

1 ـ الكشاف، الزمخشري، 480/4.
2 ـ فتح القدير، الشوكاني، 5 / 180.
3 ـ الحديد (12).
4 ـ فتح القدير، الشوكاني، 5 / 189.
5 ـ إعراب القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس، 4 / 369، تحقيق: د/ زهير غازي زاهد، عالم الكتب ـ بيروت.
6 ـ الحجرات (12).
7 ـ فتح القدير، الشوكاني، 65/5.
8 ـ الحجرات (14).
9 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 6 / 3349.

ثم يقرن الله بين طاعة رسوله، وبين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لنيل رحمة الله، فمن أراد الرحمة فهذا طريقها، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

يأمر تعالى بإقامة الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها ظاهرا وباطنا، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة، فهذان أكبر الطاعات وأجلها، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام فقال: (وأطيعوا الرسول) وذلك بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لعلكم حين تقومون بذلك ترحمون، فمن أراد الرحمة فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الرسول، فهو متمن كاذب، وقد منته نفسه الأماني الكاذبة[2]، وقال الطبري: فأدوا هذه الطاعات: (كي يرحمكم ربكم فينجيكم من عذابه)[3]، وقال في أضواء البيان: فإقامة الصلاة وما عطف عليه سبب لرحمة الله، لأن العلل أسباب شرعية، وإن قلنا إن لعل للترجي أي: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة على رجائكم أن الله يرحمكم بذلك، لأن الله ما أطمعهم بتلك الرحمة عند علمهم بموجبها، إلا ليرحمهم لما هو معلوم من فضله وكرمه، وكون لعل هنا للترجي إنما هو بحسب علم المخلوقين، وهذا الذي دلت عليه هذه الآية من أنهم إن أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطاعوا الرسول رحمهم الله بذلك، جاء موضحا في آية أخرى[4] وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5].

ـــ وهذا نوح عليه السلام يدعو قومه أن يطيعوه ولا يتعجبوا من أنه أرسل إليهم من الله، وهو يأمرهم بتقوى الله عسى أن يرحمهم، قال تعالى: قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[6].

---

1 ـ النور (56).
2 ـ انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1 / 573.
3 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري 18/ 161
4 ـ انظر أضواء البيان، الشنقيطي، 554/5.
5 ـ التوبة (71).
6 ـ الأعراف (63)

عندما دعا نوح عليه السلام قومه إلى الله اتهموه بالضلالة فقال لهم:

لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب إن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم، ولطفا وإحسانا إليكم، لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولاتشركوا به[1]، قال الزمخشري: وليحذركم عاقبة الكفر، وليوجد منكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار، ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم[2].

وقال في التيسير: وكذلك لينذركم العذاب الأليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهرا وباطنا، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة، فلم يفد فيهم ولا نجح[3].

ـــ وقد عرض الله تعالى على المشركين أن يتقوا الله، بأن يحذروا سخط الله، ويعتبروا بما حل بالأمم المكذبة قبلهم، ويحذروا عذاب الآخرة، كي يرحمهم الله وينجو من عذابه، لكنهم أعرضوا:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4].

وإذا قيل للمشركين احذروا سخط الله وغضبه، واعتبروا بما حل بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة، وهناك للآية عدة معان منها:

قال ابن عباس: ما بين أيديكم يعني الآخرة فاعملوا لها، وما خلفكم يعني من الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها، وقيل: ما بين أيديكم وقائع الله فيمن كان قبلكم من الأمم، أو عذاب الآخرة، وهو قول قتادة ومقاتل[5]، وقال أبو السعود: (أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر، لعلكم ترحمون، أي راجين أن ترحموا أو كي ترحموا فتنجوا من ذلك، لما عرفتم أن مناط النجاة ليس إلا رحمة الله تعالى)[6]، وقال الزمخشري: أي لتكونوا على رجاء رحمة الله[7]، وقال ابن كثير: (أولعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه)[8].

---

1 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 2/ 224.
2 ـ الكشاف، الزمخشري، 2/ 109.
3 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1/ 293.
4 ـ يس (45)
5 ـ معالم التنزيل، البغوي، 4 / 14
6 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 7 / 170
7 ـ الكشاف 22/4
8 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 3 / 575

ـــ ولنيل رحمة الله تعالى، يدعو الله عباده المؤمنين بأن يصلحوا بين أخوانهم في الـــدين، لأن ذلك من التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

قال الزمخشري: ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خُلصٌ لذلك متمحضون، قد انزاحـــت عنهم شبهات الأجنبية، وأبيَ لطف حالهم في التمازج والاتحاد، أن يُقْدموا على ما يتولـــد منه التقاطع، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع وأحسموه، واتقوا الله فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف، والمسارعة إلى إماطة ما يفرط منه، وكان فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم، واشتمال رأفته عليكم، حقيقا بـــأن تعقـــدوا بـــه رجاءكم[2].

وإذا حصلت الرحمة حصل خيرُ الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقـــوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة[3].

فعلى المؤمنين أن يصلحوا في ما بينهم، ولا يتركوا الفرقة تـــدب، والبغـــضاء تعمـــل عملها، وأن يتقوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، لتنالهم رحمته، ويسعدوا بجنته ومرضاته.

ـــ ووجب على المؤمن كذلك أن يصلح ما بينه وبين زوجاته، بإجبار نفسه على فعل ما لا تهواه نفسه، احتسابا وقياما بحق الزوجة، فإن ذلك من التقوى، التي ينال بها رحمـــة الله، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْـــلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[4].

يخبر تعالى أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء، وذلـــك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء والميل في القلب إلـــيهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفـــا الله عمـــا لا يستطاع، ونهى عما هو ممكن، بقوله: (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) أي لا تميلوا ميلا كثيرا، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باســـتطاعتكم في العـــدل

1 ـ الحجرات 10
2 ـ الكشاف، الزمخشري، 4 / 369
3 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1 / 801.
4 ـ النساء(129).

فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب والوطء ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للتزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها، (وإن تصلحوا) ما بينكم وبين زوجاتكم، وبإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس، احتسابا وقياما بحق الزوجة، وتصلحوا أيضا فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضا بين الناس فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقا، وتتقوا الله بفعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، (فإن الله كان غفورا رحيما) يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن[1].

3 ـــ بالهجرة والجهاد والصبر تنال الرحمة:

ـــ الله يرحم المهاجر بدينه ولو مات قبل الوصول إلى مبتغاه:

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[2]

عن ابن عباس رضي الله عنهما: مراغما أي متحولا يتحول إليه، وقال مجاهد: متزحزحا عما يكره، وقال أبو عبيدة: المراغم المهاجر، يقال: راغمت قومي وهاجرتهم وهو المضطرب والمذهب، قيل: سميت المهاجرة مراغمة، لأن من يهاجر يراغم قومه، وسعة: أي في الرزق، وقيل سعة من الضلالة إلى الهدى، وروي أنه لما نزلت هذه الآية، سمعها رجل من بني ليث شيخ كبير مريض يقال له جندع بن ضمرة فقال: والله ما أنا ممن استثنى الله عز وجل، وإني لأجد حيلة، ولي من المال ما يبلغني المدينة وأبعد منها، والله لا أبيت الليلة بمكة أخرجوني، فخرجوا به يحملونه على سرير، حتى أتوا به التنعيم فأدركه الموت، فصفق بيمينه على شماله ثم قال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعك عليه رسولك فمات، فبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتم وأوفى أجرا، وضحك المشركون وقالوا: ما أدرك هذا ما طلب، فأنزل الله : (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت) أي قبل بلوغه إلى مهاجره

1 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1 / 207.
2 ـ النساء (100).

(فقد وقع) أي وجب (أجره على الله) بإيجابه على نفسه (فضلا منه وكان الله غفورا رحيما)[1].

وقال القرطبي: (وكان الله غفورا) لما كان منه من الشرك (رحيما) حين قبل توبته[2].

وقبِل هجرته، ولو لم يبلغ مبتغاه، رحمة منه سبحانه بعباده، ويقول سيد قطب: (أما السياق القرآني فيمضي في معالجة النفوس البشرية؛ التي تواجه مشاق الهجرة ومتاعبها ومخاوفها؛ وتشفق من التعرض لها، وقد عالجها في الآيات السابقة بذلك المشهد المثير للاشمئزاز والخوف معا، فهو يعالجها بعد ذلك ببث عوامل الطمأنينة – سواء وصل المهاجر إلى وجهته أو مات في طريقه – في حالة الهجرة في سبيل الله، وبضمان الله للمهاجر منذ أن يخرج من بيته مهاجرا في سبيله، ووعده بالسعة والمتنفس في الأرض والمنطلق، فلا تضيق به الشعاب والفجاج)[3]

ـــ ويرحم الله تعالى من هاجر بدينه، ثم جاهد في سبيله وصبر على مشاق الجهاد، وسيغفر الله ما سلف منهم، جزاء ما صنعوا:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4].

يقول تعالى لنبيه: ثم إن ربك الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه، لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله، طالبا لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس، فهذه أكبر الأسباب التي ينال بها أعظم العطايا، وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب، صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم، واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة[5].

---

1 ـ معالم التنزيل، البغوي، 1 / 470.
2 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 5 / 349.
3 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 2 / 745.
4 ـ النحل (110).
5 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1/ 450.

فأولئك الذين هاجروا وجاهدوا وصبروا فالله: كما قال أبو السعود: (غفور لما فعلوا من قبل، رحيم ينعم عليهم مجازاة على ما صنعوا من بعد، وفي التعرض لعنوان الربوبية في الموضعين إيماء إلى علة الحكم وفي إضافة الرب إلى ضميره ﷺ، مع ظهور الأثر في الطائفة المذكورة، إظهار لكمال اللطف به ﷺ، وإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم، من المغفرة والرحمة بواسطته ﷺ ولكونهم أتباعا له)[1].

ـــ ثم يبين الله تعالى لعباده أن الهجرة والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل، وإنما هما من الأعمال التي تستجلب رحمة الله، ثم إن المجاهد في سبيل الله خرج لينال إحدى الحسنيين، وكلاهما ينال بهما رحمة الله، وإن قتل في سبيل الله فقد نال المغفرة والرحمة بالموت:

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ۝ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾[2]

والمعنى إن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل، وإن وقع ذلك في سبيل الله، فما تنالون من المغفرة والرحمة بالموت، خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا، وعلى أي وجه اتفق هلاككم، لإلى معبودكم الذي توجهتم إليه وبذلتم مهجكم لوجهه، لا إلى غيره لا محالة تحشرون، فيوفي جزائكم ويعظم ثوابكم[3]

قال ابن كثير: تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضا، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه وذلك خير من البقاء في الدنيا وجميع حطامها الفاني[4].

4 ـــ باب الرحمة مفتوح لمن عاد إلى الإسلام:

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5].

1 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبوالسعود، 5 / 144.
2 - آل عمران (157 - 158).
3 - أنوار التنزيل، البيضاوي، 2 / 108.
4 - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 1 / 420.
5 - البقرة 190 - 192.

قال الطبري: فإن انتهى الكافرون الذين يقاتلونكم عن قتالكم وكفرهم بالله، فتركوا ذلك وتابوا، فإن الله غفور لذنوب من آمن منهم، وتاب من شركه، وأناب إلى الله من معاصيه التي سلفت منه، وأيامه التي مضت، رحيم به في آخرته بفضله عليه، وإعطائه ما يعطي أهل طاعته من الثواب، بإنابته إلى محبته من معصيته، كما حدثنا المثنى قال: عن مجاهد فإن انتهوا فإن تابوا فإن الله غفور رحيم[1].

ـــ كما وعد الله تعالى من آمن به وآمن بجميع رسله، ولم يفرق بينهم، أن تناله رحمة الله، بتقبل حسناته وتضعيفها، وزيادة فضله عليها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[2].

وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام، ولم يفرقوا بين أحد منهم، بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان، (أولئك سوف يؤتيهم أجورهم) أي جزاء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله، ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم، (وكان الله غفورا رحيما) يغفر السيئات ويتقبل الحسنات[3].

أو بمعنى وكان الله غفورا لما فرط منهم، (رحيما) مبالغا في الرحمة عليهم، بتضعيف حسناتهم[4]. ويزيدهم على ماوعدوا[5].

5 ـــ من يعفو ويصفح ينال رحمة الله :

فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح عنه، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده بما يحبون وينفعهم، نال رحمة الله ونال محبة الناس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[6].

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 2 / 193 .
2 ـ النساء 152.
3 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 6 / 5.
4 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 249/2
5 ـ روح المعاني، الألوسي، 6 / 5.
6 ـ التغابن (14).

هذا تحذير من الله للمؤمنين عن الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، فوظيفتك الحذر ممن هذه صفته، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، التي فيها محذور شرعي، ورغبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم، المشتمل على المطالب العالية، والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية، ولمّا كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] لأن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح عنه، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده بما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره[2].

قال المفسرون: إن قوما أسلموا وأرادوا الهجرة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة، فلم يهاجروا إلا بعد مدة، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فندموا وأسفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم، فنزلت الآية الكريمة، والآية تعم كل من انشغل عن طاعة الله بالأزواج والأولاد، وإن عفوتم عنهم في تثبيطكم عن الخير، وصفحتم عما صدر منهم، وغفرتم لهم زلاتهم، فأن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة، يعاملكم بمثل ما عاملتم به أزواجكم وأولادكم.

6 ــ ينال الرحمة من استمع وأنصت إلى القرآن:

ومن الخلق الحسن والسلوك السليم لدى المؤمن حُسن الاستماع والإنصات عند سماع القرآن، لأن ذلك يعد تعظيما لله تعالى، وبالتالي رتّب الله على من سلك هذا المسلك عظيم الرحمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3]، قال في التيسير: هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث، أو

1 ـ التغابن (14).
2 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1 / 868
3 ـ الأعراف (204).

الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع لـــه فهو أن يلقي سمعه ويحـــضر قلبـــه، ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خـــيرا كثيرا وعلما غزيرا، وإيمانا مستمرا متجددا، وهدى متزايدا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتّب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تُليَّ عليه الكتاب فلم يستمع لـــــه و لم ينصت، فإنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير[1].

وقال أبو السعود عن هذه الآية أنها: إرشاد إلى طريق الفوز بما أشير إليه مـــن المنـــافع الجليلة، التي ينطوي عليها القرآن، أي: وإذا قريء القرآن الذي ذكرت شئونه العظيمـــة فاستمعوا لـــه استماع تحقيق وقبول، واسكتوا في خلال القراءة وراعوها إلى انقـــضائها تعظيما لـــه وتكميلا للاستماع، لعلكم ترحمون أي تفوزون بالرحمة التي هـــي أقـــصى ثمراته[2].

1 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 314/1.
2 ـ انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 310/3.

المبحث الرابع : الدعاء بالرحمة من مستجلبات الرحمة

يعد الدعاء مصدر من مصادر استجلاب رحمة الله تعالى، ولقد فتح الله هـــذا البـــاب الواسع لعباده، المنيبين المخبتين إليه، ويظل مفتوحا للتائبين والمستغفرين للدخول في رحمـــة الله تعالى، ويبقى العبد محتاجا إلى رحمة الله تحوطه وتحفه، للتتدارك تقصيره وعجزه جـــراء التكاليف التي أنيط بها، والدعاء وسيلة لتدارك هذا العجز، ومن هنا يعلمنـــا الله تعـــالى، كيفية الدعاء بأدب، عبر سلسلة من التوجيهات التربوية في النص القرآني، فتـــارة تـــأتي بصيغة نداء ينبعث من صدور المؤمنين، وهم يواجهون معترك الحياة، ويتحملون عـــبء التكاليف الربانية، بأن يتغمدهم الله برحمته، ليتجاوز عن تقصيرهم، وأخطائهم، وتـــرى

الراسخون في العلم يدركون هذا المعنى، وهم يعرفون أنهم لا يقدرون على شيء إلا برحمة الله وفضله، ثم يأمر رسوله ﷺ أن يُعلِّم الأمة الاستغفار والاسترحام بطريق الثناء والدعاء.

ولا ينسى المؤمن وهو يرجو رحمة ربه، أن لا يحرم والديه من هذا الدعاء، وأن يدعو الله بأن يرحمهما كما ربيانه وهو صغير، ثم يذكّر المؤمنين بأن لا ينسوا إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، بأن يدعو لهم بالرحمة، وهو اعترافا بفضلهم عليهم، وهو تعبيرا عن صدق إيمانهم، فهذه صفات المؤمن الصادق، ثم بيّن تعالى صورة للفائزين بجناته، وهم سادات الناس وفضلائهم، بخضوعهم وخشوعهم وانكسارهم لربهم، وهم يدعونه بأن يرحمهم.

ثم يعطي الله نموذجا حيا كقدوة لنا، وهم حملة العرش المقربون، وهم لا ينسون إخوانهم المؤمنين بأن يدعو لهم بالرحمة، بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن، وهم يعلموننا أدب الدعاء، إنهم الملائكة الأطهار، وهاهم الأنبياء والمرسلين والصالحين، لا يستغنون عن الدعاء بالرحمة، فهم في أمس الحاجة إلى رحمة الله تحفهم في مسيرة حياتهم، بل هاهو رسول الله ﷺ وهو قدوتنا وأسوتنا، يعلمنا كيف ندعو بالرحمة في جميع مجالات حياتنا وآخرتنا، فكيف نستغني نحن الفقراء إلى رحمة الله عن هذا الخلق، وعن هذا المبدأ؟ بل كيف نغفل عن هذا التوجيه القرآني الفريد، ونحن المقصرون في حق الله تعالى؟.

المطلب الأول: تعليم الله عباده الدعاء بالرحمة لنيلها

1 ـ حاجة المؤمنين إلى رحمة الله وعفوه بالدعاء للتدارك تقصيرهم وعجزهم:

إن تقصير العبد تجاه ربه، لا يمحو آثاره إلاّ رحمة الله وفضله، ولذلك كان الدعاء أهم وسيلة، لتدارك هذا التقصير، وهذا العجز، فالمؤمن بحاجة مع ذلك إلى تعليم الله لكيفية الدعاء، لبيان ضعفه وعجزه، وحاجته إلى رحمة ربه، قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

1 - البقرة (286).

يقول سيد قطب: وهكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله في التكاليف، التي يفرضها الله عليه في خلافته للأرض؛ وفي ابتلائه في أثناء الخلافة؛ وفي جزائه على عمله في نهاية المطاف، ويطمئن إلى رحمة الله وعدله في هذا كله، فلا تنال نفس إلا ما كسبت؛ ولا تحمل نفس إلا ما اكتسبت، وكأنما سمع المؤمنون هذه الحقيقة وأدركوها، فها هو ذا ينطلق من قلوبهم دعاء خافق واجف[1]...

ربنا لا تؤاخذنا إن تركنا أمرا من أوامرك سهوا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا عبأ، يأصر حامله، كما حملته على الذين من قبلنا كاليهود، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به من العقوبات النازلة بمن قبلنا، وامح سيآتنا واستر ذنوبنا، وارحمنا بتثقيل ميزاننا مع أفلاسنا، أو الأول من المسخ، والثاني من الخسف، والثالث من الغرق، أنت سيدنا ونحن عبيدك، أو ناصرنا، أو متولي أمورنا، فانصرنا على القوم الكافرين فمن حق المولى أن ينصر عبيده[2].

ويقول سيد قطب عن هذا الدعاء: (وهو دعاء يصور حال المؤمنين مع ربهم؛ وإدراكهم لضعفهم وعجزهم، وحاجتهم إلى رحمته وعفوه، وإلى مدده وعونه، وانتسابهم إليه وتجردهم من كل من عداه؛ واستعدادهم للجهاد في سبيله واستمدادهم النصر منه.. وهو دعاء يشي بحقيقة الاستسلام، فالمؤمنون لا ينوون نكولا عن تكليف الله أيا كان، ولكنهم فقط يتوجهون إليه راجين متطلعين أن يرحم ضعفهم، فلا يكلفهم ما لا يطيقون، كي لا يعجزوا عنه ويقصروا فيه.. وإلا فهي الطاعة المطلقة والتسليم)[3]..

ثم يقول سيد: (أن هذا التقصير لا يمحو آثاره إلاّ رحمة الله وفضله: ثم الاعتراف بالضعف بعد ذلك والتوجس من التقصير، الذي لا يمحو آثاره إلا فضل الله العفوُّ الغفورُ: (واعف عنا، واغفر لنا وارحمنا)، فهذا هو الضمان الحقيقي لاجتياز الامتحان، ونيل الرضوان، فالعبد مقصر مهما يحاول من الوفاء، ومن رحمة الله به أن يعامله بالعفو والمرحمة والغفران.. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : « قَارِبُوا وَسَدِّدُوا. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ وَلاَ أَنْتَ؟ قَالَ: « وَلاَ أَنَا، إِلاَّ

1 ـ انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، 344/1 ، بالتصرف
2 ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، 1 / 140.
3 ـ انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، 344/1 ـ 347، بالتصرف.

أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[1].. وهذا هو قوام الأمر في حس المؤمن: عمل بكل ما في الوسع، وشعور مع ذلك بالتقصير والعجز.. ورجاء – بعد ذلك – في الله لا ينقطع، وتطلع إلى العفو والمغفرة والسماح.

وأخيرا يلصق المؤمنون ظهورهم إلى ركن الله، وهم يهمون بالجهاد في سبيله، لإحقاق الحق الذي إراده، وتمكين دينه في الأرض ومنهجه، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله... وهم باسمه يقاتلون الكفار الخارجين)[2]: (أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين)..

ـــ إن تلك الآيات من خزائن رحمة الله تعالى، كما في الحديث:

عن أَيْفَعُ بْنُ عَبْدٍ الْكلاعِيُّ[3] قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ سُورَةِ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، قَالَ: فَأَيُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ أَعْظَمُ؟ قَالَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)، قَالَ: فَأَيُّ آيَةٍ يَا نَبِيَّ اللَّهِ تُحِبُّ أَنْ تُصِيبَكَ وَأُمَّتَكَ، قَالَ: خَاتِمَةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّهَا مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَةِ اللَّهِ، مِنْ تَحْتِ عَرْشِهِ أَعْطَاهَا هَذِهِ الأُمَّةَ، لَمْ تَتْرُكْ خَيْرًا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلاّ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ[4].

ـــ ويُعلِّم الله تعالى رسوله الكريم ﷺطريق الثناء والدعاء، تعليما للأمة الاستغفار والاسترحام، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[5].

أمر الله رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليمًا للأمة طريق الثناء والدعاء، اللهم اغفر لنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، يا أرحم الرحمين، يقول الطبري:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : وقل يا محمد رب استر عليَّ ذنوبي بعفوك عنها، وارحمني بقبول توبتك، وتركك عقابي على ما اجترمت، وأنت خير الراحمين يقول: وقل أنت يا رب خير من رحم ذا ذنب، فقبل توبته و لم يعاقبه على ذنبه[6].

---

1 ـ صحيح مسلم، مسلم، 17 / 134، برقم: 7066

2 ـ انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، 344/1 ـ 347، بالتصرف.

3 ـ **أيفع بن عبدٍ الكلاعي**، الحمصي، من طبقة دون وسطى التابعين، أقام بالشام.

4 ـ سنن الدارمي، الدارمي، تحقيق وتعليق: د/ مصطفى ديب البغا، فضائل القرآن،3246، تفرد به الدارمي، حديث مرفوع مرسل، لم يذكر الصحابي الذي تلقى عنه الحديث، دار القلم ـ دمشق، ط1، 1412هـ/1991م.

5 ـ المؤمنون (118)

6 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 65/18

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِي اللَّه عَنْه، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاتِي قَالَ: قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، ولا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاّ أَنْتَ، فَـــاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّك أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [1].

ـــ وهاهم الراسخون في العلم، يلجئون إلى الدعاء، وهم بحاجة أن يسبغ عليهم ربهم من رحمته، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[2].

في هذه الآية يتحدث سيد قطب عن حال المؤمنين الراسخون في العلم، فيقول: (عندئذ تنطلق ألسنتهم وقلوبهم في دعاء خاشع وفي ابتهال منيب: أن يثبتهم على الحق، وألا يزيغ قلوبهم بعد الهدى، وأن يسبغ عليهم رحمته وفضله.. ويتذكرون يوم الجمع الذي لا ريب فيه، والميعاد الذي لا خلف له... هذا هو حال الراسخين في العلم مع ربهم؛ وهو الحال اللائق بالإيمان؛ المنبثق من الطمأنينة لقول الله ووعده؛ والثقة بكلمته وعهده؛ والمعرفة برحمته وفضله؛ والإشفاق مع هذا من قضائه المحكم وقدره المغيب؛ والتقوى والحساسية واليقظة التي يفرضها الإيمان على قلوب أهله، فلا تغفل ولا تغتر ولا تنسى في ليل أو نهار.. ومن ثم يتجه المؤمنون إلى ربهم بذلك الدعاء الخاشع:

وينادون رحمة الله التي أدركتهم مرة بالهدى بعد الضلال، ووهبتهم هذا العطاء الذي لا يعدله عطاء: (وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب)..

وهم بوحي إيمانهم يعرفون أنهم لا يقدرون على شيء إلا بفضل الله ورحمته، وأنهم لا يملكون قلوبهم فهي في يد الله.. فيتجهون إليه بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاة...

ومتى استشعر القلب المؤمن وقع المشيئة على هذا النحو لم يكن أمامه إلا أن يلتصق بركن الله في حرارة ، وأن يتشبث بحماه في إصرار، وأن يتجه إليه يناشده رحمته وفضله،لاستبقاء الكنز الذي وهبه، والعطاء الذي أولاه!)[3].

2 ـــ الدعاء بالرحمة لأولي الفضل والسبق:

1 ـ صحيح البخاري، البخاري، كتاب الآذان، برقم: 790
2 ـ آل عمران (8)
3 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 370/1 ـ 371.

من أخلاق المؤمنين ذكر أولي الفضل، والسبق في الإيمان بالدعاء لهم بالرحمة، ومن هؤلاء الوالدين، فقد بيّن الله تعالى واجب المؤمن تجاه والديه، بأن لا ينساهما من الدعاء، وخاصة الدعاء بالرحمة، قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾[1].

يبيّن سبحانه وتعالى واجب المؤمن تجاه والديه، فيدعوه: أن ألن جانبك وتواضع لهما بتذلل وخضوعٍ، من فرط رحمتك وعطفك عليهما، وادعو لهما بالرحمة، (لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله تعالى إليهما بالأمس، (وقل رب ارحمهما) وادع الله تعالى أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكتف برحمتك الفانية، (كما ربياني صغيرا) رحمة مثل رحمتهما عليَّ، وتربيتهما وارشادهما لي في صغري، وفاء بوعدك للراحمين[2].

ويقول سيد قطب في قوله تعالى: (وقل: رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) فهي الذكرى الحانية، ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الولدان، وهما اليوم في مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان، وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما، فرحمة الله أوسع، ورعاية الله أشمل، وجناب الله أرحب، وهو أقدر على جزائهما، بما بذلا من دمهما وقلبهما، مما لا يقدر على جزائه الأبناء...

ولأن الانفعالات والحركات موصولة بالعقيدة في السياق، فإنه يعقب على ذلك برجع الأمر كله لله الذي يعلم النوايا، ويعلم ما وراء الأقوال والأفعال: ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا﴾[3]..

وجاء هذا النص قبل أن يمضي في بقية التكاليف والواجبات والآداب ليرجع إليه كل قول وكل فعل؛ وليفتح باب التوبة والرحمة لمن يخطيء أو يقصر، ثم يرجع فيتوب من الخطأ والتقصير، وما دام القلب صالحا، فإن باب المغفرة مفتوح، والأوابون هم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين)[4].

---

1 ـ الإسراء (23 ـ 24).
2 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 3 / 441.
3 ـ الإسراء (24).
4 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 /2222.

ـــ ومن أخلاق وواجبات المؤمنين كذلك، أن يذكروا إخوانهم المؤمنين السابقين لهم بالإيمان بالرحمة والدعاء، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ولإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.[1]

يقول أبو السعود: هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين المستحقين للإحسان والفضل، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، يدعون لهم قائلين: ياربنا اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان، قال أبو السعود: وصفوهم بالسبق بالإيمان اعترافا بفضلهم، لأن أخوة الدين عندهم أعز وأشرف من النسب، (ولا تجعل في قلوبنا بغضا وحسدا لأحد من المؤمنين)، (ربنا إنك رؤوف رحيم) أي مبالغ في الرأفة والرحمة، فحقيق بأن تجيب دعاءنا[2].

وقال ابن كثير: وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة، أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس لـــه في مال الغنيمة شيء، لعدم اتصافه بأوصـــاف المـــؤمنين، وعن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم ثم قرأت هذه الآية[3].

ـــ والدعاء بالرحمة من مميزات الفائزين بالجنان يوم القيامة، كانوا في الدنيا يدعون الله أن يتغمدهم برحمته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ، إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[4].

يقول السعدي: فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بـــالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بـــسعة رحمتـــه وعمـــوم إحسانه، وفي ضمنه ما يدل على خضوعهم وخشوعهم وانكسارهم لـــربهم، وخـــوفهم ورجائهم، فهؤلاء سادات الناس وفضلائهم، فاتخذتموهم أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول والأحلام سخريا، تهزؤون بهم، وتحتقرونهم، حتى اشتغلتم بذكر السفه، حـــتى أنـــسوكم ذكري، وكنتم منهم تضحكون، وهذا الذي أوجب لهـــم نـــسيان الـــذكر، اشـــتغالهم

1 ـ الحشر (10).
2 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 230/8.
3 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 4 / 340.
4 ـ المؤمنون (109).

بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجرأة جرأة؟ إني جزيتهم اليوم بما صبروا على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إليَّ، أنهم هم الفائزون بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم[1].

المطلب الثاني: أدب الدعاء بالرحمة عند الملائكة:

هاهم الملائكة يعلموننا أدب الدعاء بالرحمة، وهم يدعون للمؤمنين، قال سيد قطب: دعاء الملائكة للمؤمنين الصالحين، يتصل بتلك الحقيقة الأولى أن حملة العرش ومن حوله- وهم من بين القوى المؤمنة في هذا الوجود- يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم، ويستغفرون لهم، ويستنجزون وعد الله إياهم؛ بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين [2]:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3].

ويقول سيد قطب: (هؤلاء العباد المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله، إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن، وهم يبدؤون دعاءهم بأدب، يعلمنا كيف يكون أدب الدعاء والسؤال، يقولون: (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً).. يقدمون بين يدي الدعاء بأنهم – في طلب الرحمة للناس – إنما يستمدون من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويحيلون إلى علم الله الذي وسع كل شيء؛ وأنهم لا يقدمون بين يدي الله بشيء؛ إنما هي رحمته وعلمه، منهما يستمدون وإليهما يلجأون: فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم.. ثم يرتقون في الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين...

1 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1 / 560
2 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 3070/5 - 3071.
3 - غافر (7 - 9).

ودخول الجنة نعيم وفوز، يضاف إليه صحبة من صلح من الآباء والأزواج والذريات، وهي نعيم آخر مستقل، ثم هي مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين، فعند عقدة الإيمان يلتقي الآباء والأبناء والأزواج، ولولا هذه العقدة لتقطعت بينهم الأسباب:

والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء: إنك أنت العزيز الحكيم يشير إلى القوة كما يشير إلى الحكمة، وبها يكون الحكم في أمر العباد..

(وقهم السيئات، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم)..

وهذه الدعوة – بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن – لفتة إلى الركيزة الأولى في الموقف العصيب، فالسيئات هي التي توبق أصحابها في الآخرة، وتوردهم مورد التهلكة، فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها، وقاهم نتائجها وعواقبها، وكانت هذه هي الرحمة في ذلك الموقف، وكانت كذلك أولى خطوات السعادة، وذلك هو الفوز العظيم.. فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم!)[1].

ومن أدعية الملائكة للمؤمنين دعاؤهم لهم في المسجد بالرحمة، في الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : « صَلاَةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَصَلاَتِهِ فِي سُوقِهِ، بِضْعاً وَعِشْرِينَ دَرَجَةً، وَذلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ، لاَ يَنْهَزُهُ إِلاَّ الصَّلاَةُ، لاَ يُرِيدُ إِلاَّ الصَّلاَةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلاَّ رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلاَةِ مَا كَانَتِ الصَّلاَةُ هِيَ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلاَئِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ»[2].

المطلب الثالث: أدب الأنبياء والصالحين في الدعاء بالرحمة

1 ـــ دعاء آدم عليه السلام وحوى بالرحمة:

﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3].

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 3070/5 - 3071.
2 ـ صحيح مسلم، مسلم، 5 / 135، برقم: 1456.
3 ـ الأعراف (23).

أي قد فعلنا الذنب الذي نهيتنا عنه، وأضررنا بأنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار، وإن لم تغفر لنا بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا[1]، لنكونن من الخاسرين.

ويكون معنى الدعاء من جهة أخرى: ربنا ضررنا أنفسنا بالمعصية، و نقصناها حظها، بالتعرض للإخراج من الجنة، وإن لم تغفر لنا ذلك بعدم العقاب عليه، وترحمنا بالرضا علينا، وإن لم تستر علينا بالحفظ عما يتسبب نقصان الحظ، وترحمنا بالتفضل علينا بما يكون عوضا عما فاتنا،لنكونن من الخاسرين[2].

إنها خصيصة "الإنسان" التي تصله بربه، وتفتح له الأبواب إليه.. الاعتراف والندم، والاستغفار، والشعور بالضعف، والاستعانة به، وطلب رحمته، مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته.. وإلا كان من الخاسرين[3].

2 ـــ من دعاء إبراهيم عليه السلام بالرحمة:

أ ـــ دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالتوبة وبالرحمة عند بناء البيت:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[4].

يقول سيد قطب: (ثم يرسم مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذي تلقياه من ربهما، بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود، يرسمه مشهودا كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما في آن، وماذا في ثنايا الدعاء؟ إنه أدب النبوة، وإيمان النبوة، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود، وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء، وأن يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيحاء:

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم.. إنه طلب القبول.. هذه هي الغاية.. فهو عمل خالص لله، والرجاء في قبوله متعلق بأن الله سميع للدعاء، عليهم بما وراءه من النية والشعور، إنه رجاء العون من ربهما في الهداية إلى الإسلام...

1 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1/ 285.
2 ـ روح المعاني، الألوسي، 101/8.
3 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 1270/3.
4 ـ البقرة (127 ـ 128).

ثم يقول سيد مستطرقا لمعنى هذا الدعاء: وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن، إن أمر العقيدة هو شغله الشاغل، وهو همه الأول، وشعور إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما.. نعمة الإيمان.. تدفعهما إلى الحرص عليها في عقبهما، وإلى دعاء الله ربهما ألا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذي لا يكافئه إنعام، لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات و لم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان؛ وأن يريهم جميعا مناسكهم، ويبين لهم عباداتهم، وأن يتوب عليهم، بما أنه هو التواب الرحيم)[1].

ولما كان العبد – مهما كان – لا بد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى التوبة، قالا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم[2]، وكذلك معنى: إنك أنت التواب الرحيم، قال الطبري: فإنه يعني به إنك أنت العائد على عبادك بالفضل، والمتفضل عليهم بالعفو والغفران، الرحيم بهم المستنقذ من تشاء منهم برحمتك من هلكته، المنجي من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك[3].

ب ــ دعاء ابراهيم عليه السلام لمن عصاه من ذريته بأن يكله إلى غفران الله ورحمته:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4].

يقول سيد قطب: (يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله؛ ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير... ثم يتابع الدعاء.. فأما من تبع طريقي فلم يفتتن بها فهو مني، ينتسب إلى ويلتقي معي في الآصرة الكبرى، آصرة العقيدة: وأما من عصاني منهم فأفوض أمره إليك:

(ومن عصاني فإنك غفور رحيم).. وفي هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم؛ فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه، ولا يستعجل لهم العذاب؛ بل لا يذكر العذاب، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته، ويلقي على الجو ظلال

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 114/1 ـ 115.
2 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 1/ 66.
3 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 1 / 556.
4 ـ إبراهيم (35 ـ 36).

المغفرة والرحمة؛ وتحت هذا الظل يتوارى ظل المعصية؛ فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم!)[1].

3 ــ من دعاء موسى عليه السلام بالرحمة:

أ ــ دعاء موسى عليه السلام بالرحمة له ولأخيه هارون:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2].

لما تحقق لموسى براءة ساحة هارون عليه السلام من التقصير، طلب عند ذلك من الله المغفرة له ولأخيه، قال أبو السعود في تفسيره: قال: (رب اغفر لي) أي ما فعلت بأخي من غير ذنب مقرر من قبله، (ولأخي) إن فرط منه تقصير ما في كفهم عما فعلوه من العظيمة، استغفر عليه السلام لنفسه ليرضي أخاه، ويظهر للشامتين رضاه، لئلا تتم شماتتهم به ولأخيه، للإيذان بأنه محتاج إلى الاستغفار، حيث كان يجب عليه أن يقاتلهم، (وأدخلنا في رحمتك) بمزيد الإنعام بعد غفران ما سلف منا، (وأنت أرحم الراحمين) فلا غرو في انتظامنا في سلك رحمتك الواسعة في الدنيا والآخرة[3]، وقال الزمخشري: وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة [4].

ب ــ موسى عليه السلام يلجأ بالدعاء بالمغفرة والرحمة بعد أن أخذتهم الرجفة:

اختار موسى من قومه سبعين رجلا ممن لم يعبدوا العجل للوقت الذي وعده ربه الإتيان فيه للاعتذار عن عبادة العجل، فلما رجف بهم الجبل وصعقوا، قال موسى على وجه التضرع والإستسلام لأمر الله: لو شئت يارب أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت، فإنا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء، أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون، فكأنه يقول: لا تعذبنا يا ألله بذنوب غيرنا، ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا محنتك وابتلاؤك، تمتحن بها عبادك، تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله، وتهدي من تشاء هدايته.

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 2108/5 ـ 2109.
2 ـ الأعراف (151).
3 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 3 / 275.
4 ـ الكشاف، الزمخشري، 2/ 153.

قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [1].

قال الرازي: واعلم أن قوله: (أنت ولينا) يفيد الحصر ومعناه أنه لا ولي لنا ولا ناصر ولا هادي إلا أنت، وهذا من تمام ما سبق ذكره من قوله تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء وقوله: (فاغفر لنا وارحمنا)، المراد منه أن إقدامه على قوله إن هي إلا فتنتك جراءة عظيمة، فطلب من الله غفرانها والتجاوز عنها، وأن كل من سواك فإنما يتجاوز عن الذنب، إما طلبا للثناء الجميل أو للثواب الجزيل، أو دفعا للربقة الخسيسة عن القلب، وبالجملة فذلك الغفران يكون لطلب نفع، أو لدفع ضرر، أما أنت فتغفر ذنوب عبادك و لا لطلب عوض وغرض، بل لمحض الفضل والكرم، فوجب القطع بكونه خير الغافرين والله أعلم[2].

وقال ابن كثير: والغفر هو الستر، وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل، وأنت خير الغافرين، أي لا يغفر الذنب إلا أنت[3].

4 ـــ أدب نوح عليه السلام في الدعاء بالرحمة:

قال سيد قطب: (ولأن نوحا دعا دعاء من يستنجز وعدا لا يراه قد تحقق.. كان الرد عليه يحمل رائحة التأنيب والتهديد: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [4]..

إني أعظك خشية أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط، أو حقيقة وعد الله وتأويله، فوعد الله قد أُوِّل وتحقق، ونجا أهلك الذين هم أهلك على التحقيق[5].

فقال نوح معتذرا إلى ربه عما صدر عنه: رب إني استجير بك من أن أسألك أمرا لا يليق بي سؤاله، وإلا تغفر لي زلتي، وتتداركني برحمتك، أكن ممن خسر آخرته وسعادته.

---

1 ـ الأعراف (155).
2 ـ التفسير الكبير، الرازي، 15 / 18.
3 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 2 / 251
4 ـ هود (46).
5 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 1880/4.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [1].

ويقول سيد قطب: (ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زل في حق ربه، فيلجأ إليه، يعوذ به، ويطلب غفرانه ورحمته:

قال: رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين.. وأدركت رحمة الله نوحا، تطمئن قلبه، وتباركه هو والصالح من نسله)[2].

5 ـــ دعاء يوسف عليه السلام لأخوته بالرحمة:

قال تعالى: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [3].

أي قال لهم يوسف عليه السلام: لا عتاب عليكم اليوم ولا عقوبة بل أصفح وأعفو، ولا تعيير عليكم، فلا أثربكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتدأ فقال: يغفر الله لكم، فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، وهو أرحم الرحمين أي إذا رحمتكم وأنا الفقير القتور، فما ظنكم بالغني الغفور[4]، أرحم الراحمين.

6 ـــ أدب أيوب عليه السلام في الدعاء بذكر أرحم الراحمين:

ويُبتلى أيوب عليه السلام في ماله وولده وجسده، ثم يصبر ويصبر ثمان عشرة سنة، وخلال هذه الفترة من البلاء يستحي أن يدعو الله بالشفاء، بل ينادي ربه هكذا: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [5].

قال في التسهيل: ليس تصريحا بالدعاء، ولكنه ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، ووصف ربه بغاية الرحمة، ليرحمه فكان في ذلك من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب[6].

ويقول سيد قطب: (وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله: أني مسني الضر.. ووصف ربه بصفته: وأنت أرحم الراحمين، ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبرا على بلائه، ولا يقترح شيئا على ربه، تأدبا معه وتوقيرا، فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء،

---

1 - هود (47).
2 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 1880/4.
3 - يوسف (92).
4 - انظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، 2 / 203 - 204،
5 - الأنبياء (83).
6 - التسهيل لعلوم التنزيل، الكلبي، 3 / 31.

ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار، بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئنانا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال.

ثم قال سيد: وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾[1]، رحمة من عندنا فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومنة، وذكرى للعابدين.. رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافى صحيح، ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم، ورزقه مثلهم، وقيل هم أبناؤه فوهب الله له مثليهم، أو أنه وهب له أبناء وأحفادا)[2].

ويعلق ابن القيم رحمه الله تعالى عن دعاء أيوب عليه السلام بقوله: فإن شكا إليه سبحانه وتعالى لم يكن ذلك شكوى بل استعطاف وتملق واسترحام له، كقول أيوب: (ربي أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين)... فالشكوى إلى الله سبحانه لا تنافي الصبر بوجه، فإن الله تعالى قال عن أيوب: (إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب)، مع إخباره عنه بالشكوى إليه في قوله: (مسني الضر)، وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل، والنبي إذا قال وفى مع قوله: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله)، ولم يجعل ذلك نقصا لصبره، ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم، كما قال بعضهم لما قال: مسني الضر قال تعالى: إنا وجدناه صابرا، ولم يقل: صبورا، حيث قال مسني الضر، وقال بعضهم لم يقل: ارحمني، وإنما أرحم الراحمين، فلم يزد على الإخبار بحاله ووصف ربه، وقال بعضهم: إنما شكا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر، فشكا مس ضر ضعف الذكر، لا ضر المرض والألم، وقال بعضهم: استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة، وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافي الصبر، وغلط أقبح الغلط، فالمنافي للصبر شكواه لا الشكوى إليه، فالله يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعاءه، والشكوى إليه، ولا يحب التجلد عليه، وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه، وتذلله له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه،

1 - الأنبياء (84).
2 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 /2392.

وعليك بالتضرع والتمسكن، وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم[1].

وفي مدارج السالكين يقول ابن القيم: وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله، كما رأى بعضهم رجلا يشكو إلى آخر فاقة وضرورة فقال : يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ثم أنشد :

وإذا عرتك بلية فاصبر لها * صبر الكريم فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما * تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم.[2]

7 ـ دعاء سليمان عليه السلام بالرحمة:

قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[3].

وسليمان عليه السلام يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين رحمة من الله تعالى فلذلك نراه يدعو بهذا الدعاء:

ومناسبة هذا الدعاء أن سليمان عليه السلام مرّ على واد النمل فسمع تحذير النملة:

فتبسم ضاحكا من قول النملة، تعجبا من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها، وسرورا بما خصَّه الله تعالى به من إدراك همسها، وفهم غرضها، ولذلك سأل توفيق شكره ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [4] أي إجعلني أزع شكر نعمتك عندي، أي أكفه وارتبطه لا ينفلت عني، بحيث لا أنفك عنه، و أدرج فيه ذكر والديه تكثيرًا للنعمة، أو تعميمًا لها، فإن النعمة عليهما نعمة عليه، والنعمة عليه يرجع نفعها إليهما سيّما الدينية، (وأن أعمل صالحا ترضاه) إتمامًا للشكر واستدامة للنعمة، (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) في عدادهم الجنة[5]، وأدخلني برحمتك مع عبادك الصالحين الذين اخترتهم لرسالتك، وانتخبتهم لوحيك يقول: أدخلني من الجنة مداخلهم.

---

1 ـ انظر الروح في الكلام عن أرواح الأموات والأحياء، ابن القيم، 1/ 258 ـ 260، دار الكتب العربية ـ بيروت، 1395هـ/1975م.

2 ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، 2 / 161، دار الكتاب العربي ـ بيروت، تحقيق: محمد حامد الفقي، يوسف أحمد البكري، شاكر توفيق العاروري، ط2، 1393هـ/ 1973م.

3 ـ النمل (19).

4 ـ النمل (19).

5 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، 4/ 262 ـ 263.

وقال القرطبي: قال كفني عما يسخطك[1]، وقال الشوكاني: الدعاء منه بأن يوزعه الله شكر نعمته على والديه، كما أوزعه شكر نعمته عليه، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه، وذلك يستوجب الشكر منه لله سبحانه، ثم طلب أن يضيف الله له لواحق نعمه إلى سوابقها، ولا سيما النعم الدينية، فقال: (وأن أعمل صالحا ترضاه) أي عملا صالحا ترضاه مني، ثم دعا أن يجعله الله سبحانه في الآخرة داخلا في زمرة الصالحين، فإن ذلك هو الغاية التي يتعلق الطلب بها، فقال: (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) والمعنى أدخلني في جملتهم وأثبت اسمي في أسمائهم، واحشرني في زمرتهم إلى دار الصالحين، وهي الجنة [2].

ولهذا دعا سليمان عليه السلام الله أن يدخله في جنته برحمته، ولم يتكل على عمله، لأن دخول الجنة بالتفضل من الله، لا بالعمل، ففضل الله سبب الفوز والنجاح.

وتأتي تأملات صاحب الظلال حول ظلال هذا الدعاء: وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين..

(أدخلني برحمتك.. فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين، رحمة من الله، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح، فيسلك في عداد الصالحين، يعلم هذا، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين، الموفقين السالكين في هذا الرعيل، يضرع إلى ربه وهو النبي الذي أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير، غير آمن مكر الله – حتى بعد أن اصطفاه ـــ خائفا أن يقصر به عمله، وأن يقصر به شكره.. وكذلك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته، والتشوق إلى رضاه ورحمته، في اللحظة التي تتجلى فيها نعمته، كما تجلت، والنملة تقول وسليمان يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه ، هذه الخارقة تجعل سليمان عليه السلام يدعو ربه أن يدخله في رحمته) [3].

8 ـــ دعاء أصحاب الكهف بالرحمة:

1 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 176/13.
2 ـ فتح القدير، الشوكاني، 4 /131.
3 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 2637/4.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[1].

لما فروا ممن يطلبهم، اشتغلوا بالدعاء ولجئوا إلى الله تعالى فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة، أي مغفرة ورزقا وهيىء لنا من أمرنا رشدا توفيقا للرشاد، وقال بن عباس: مخرجا من الغار في سلامة، وقيل صوابا[2].

المطلب الرابع: من أدعية النبي ﷺ بالرحمة:

يعد الدعاء الدعامة الرئيسة في حياة الرسول ﷺ ،فتراه ﷺ يلجأ إلى الله بتضرع وخشوع، يطلب عفوه ومغفرته ورحمته، كلما حزبه أمر أو خالجه شأن من شئون الحياة، وهو في ذلك يعلمنا أن نلجأ إلى الله في كل أمور حياتنا، نطلب عونه وعفوه ورحمته، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، فنجعل كل خطوة نخطوها دعاء.

ويعد الدعاء في حياة الرسول ﷺ نقطة ارتكاز في أموره كلها، ويعد تأثرا بدعاء ممن سبقه من الأنبياء والمرسلين، وهو تجاوبا مع توجيهات الآيات القرآنية، فهذه بعض الأدعية من حياته ﷺ في مواجهة شئون الحياة، ولتدارك التقصير والعجز بالرحمة، اللهم عاملنا بالرحمة وبالفضل لا بالعدل، وبالإحسان لا بالميزان، وبالجبر لا بالحساب.

1 ــ دعاؤه ﷺ بالرحمة عند الاستيقاظ من النوم:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: (لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي وَأَسْأَلُكَ **رَحْمَتَكَ** اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا ولآ تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ **رَحْمَةً** إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)[3].

2 ــ دعاؤه ﷺ بالرحمة بعد الصلاة:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَيْلَةً حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيمَانًا وَيَقِينًا لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ وَرَحْمَةً أَنَالُ بِهَا

1 ـ الكهف (10)
2 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 10 / 362
3 ـ سنن أبي داود، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، 4402ـ الأدب، دار الجيل ـ بيروت، ط1، 1412هـ/1992م.

شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ فِي الْعَطَاءِ وَنُزُلَ الشُّهَدَاءِ وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْزِلُ بِكَ حَاجَتِي وَإِنْ قَصُرَ رَأْيِي وَضَعُفَ عَمَلِي افْتَقَرْتُ إِلَى رَحْمَتِكَ، فَأَسْأَلُكَ يَا قَاضِيَ الأُمُورِ وَيَا شَافِيَ الصُّدُورِ كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ الْبُحُورِ أَنْ تُجِيرَنِي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، وَمِنْ دَعْوَةِ الثُّبُورِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقُبُورِ، اللَّهُمَّ مَا قَصُرَ عَنْهُ رَأْيِي وَلَمْ تَبْلُغْهُ نِيَّتِي وَلَمْ تَبْلُغْهُ مَسْأَلَتِي مِنْ خَيْرٍ وَعَدْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ خَيْرٍ أَنْتَ مُعْطِيهِ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ فَإِنِّي أَرْغَبُ إِلَيْكَ فِيهِ، وَأَسْأَلُكَهُ بِرَحْمَتِكَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ ذَا الْحَبْلِ الشَّدِيدِ وَالأَمْرِ الرَّشِيدِ أَسْأَلُكَ الأَمْنَ يَوْمَ الْوَعِيدِ، وَالْجَنَّةَ يَوْمَ الْخُلُودِ , مَعَ الْمُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ، الرُّكَّعِ السُّجُودِ، الْمُوفِينَ بِالْعُهُودِ، إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا هَادِينَ مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ وَلاَ مُضِلِّينَ، سِلْمًا لأَوْلِيَائِكَ، وَعَدُوًّا لأَعْدَائِكَ , نُحِبُّ بِحُبِّكَ مَنْ أَحَبَّكَ، وَنُعَادِي بِعَدَاوَتِكَ مَنْ خَالَفَكَ، اللَّهُمَّ هَذَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْكَ الإِجَابَةُ، وَهَذَا الْجُهْدُ وَعَلَيْكَ التُّكْلاَنُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي نُورًا فِي قَلْبِي وَنُورًا فِي قَبْرِي، وَنُورًا مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَنُورًا مِنْ خَلْفِي، وَنُورًا عَنْ يَمِينِي، وَنُورًا عَنْ شِمَالِي، وَنُورًا مِنْ فَوْقِي، وَنُورًا مِنْ تَحْتِي، وَنُورًا فِي سَمْعِي، وَنُورًا فِي بَصَرِي، وَنُورًا فِي شَعْرِي، وَنُورًا فِي بَشَرِي، وَنُورًا فِي لَحْمِي، وَنُورًا فِي دَمِي، وَنُورًا فِي عِظَامِي، اللَّهُمَّ أَعْظِمْ لِي نُورًا وَأَعْطِنِي نُورًا وَاجْعَلْ لِي نُورًا سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ الْعِزَّ وَقَالَ بِهِ، سُبْحَانَ الَّذِي لَبِسَ الْمَجْدَ وَتَكَرَّمَ بِهِ، سُبْحَانَ الَّذِي لاَ يَنْبَغِي التَّسْبِيحُ إِلاَّ لَهُ، سُبْحَانَ ذِي الْفَضْلِ وَالنِّعَمِ، سُبْحَانَ ذِي الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ , سُبْحَانَ ذِي الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ)[1].

3 ـــ من دعائه ﷺ وللمؤمنين بالرحمة:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عَصًا فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ قُمْنَا فَقَالَ : لا تَفْعَلُوا كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ فَارِسَ بِعُظَمَائِهَا قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ لَنَا قَالَ:

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَارْضَ عَنَّا وَتَقَبَّلْ مِنَّا وَأَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَنَجِّنَا مِنَ النَّارِ وَأَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ)، قَالَ فَكَأَنَّمَا أَحْبَبْنَا أَنْ يَزِيدَنَا فَقَالَ أَوَلَيْسَ قَدْ جَمَعْتُ لَكُمُ الأَمْرَ)[2].

4 ـــ دعاء الإستسقاء بنشر الرحمة:

1 ـ سنن الترمذي، الترمذي، برقم:3341.
2 ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، 3826.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَسْقَى قَالَ: (اللَّهُمَّ اسْقِ عِبَادَكَ وَبَهَائِمَكَ وَانْشُرْ رَحْمَتَكَ وَأَحْيِ بَلَدَكَ الْمَيِّتَ). هَذَا لَفْظُ حَدِيثِ مَالِكٍ[1].

6 ــ دعاؤه ﷺ قبل وفاته بالرحمة:

عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ مُسْنِدٌ إِلَى صَدْرِهَا وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ:

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَ**ارْحَمْنِي** وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ)[2].

7 ــ تعليمه ﷺ من أسلم الدعاء بالرحمة:

عن ابْنَ زِيَادٍ حَدَّثَنَا أَبُو مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُ مَنْ أَسْلَمَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي)[3].

8 ــ تعليمه ﷺ المؤمنين الدعاء بالرحمة:

عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: يَا قَبِيصَةُ مَا جَاءَ بِكَ؟ , قُلْتُ: كَبِرَتْ سِنِّي وَرَقَّ عَظْمِي فَأَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مَا يَنْفَعُنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، قَالَ : يَا قَبِيصَةُ مَا مَرَرْتَ بِحَجَرٍ وَلاَ شَجَرٍ وَلاَ مَدَرٍ إِلاَّ اسْتَغْفَرَ لَكَ، يَا قَبِيصَةُ إِذَا صَلَّيْتَ الْفَجْرَ فَقُلْ ثَلاَثًا:

سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ تُعَافَى مِنَ الْعَمَى وَالْجُذَامِ وَالْفَالِجِ، يَا قَبِيصَةُ قُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِمَّا عِنْدَكَ وَأَفِضْ عَلَيَّ مِنْ فَضْلِكَ وَانْشُرْ عَلَيَّ **رَحْمَتَكَ** وَأَنْزِلْ عَلَيَّ مِنْ بَرَكَاتِكَ)[4].

9 ــ تعليمه ﷺ المؤمنين دعاء المكروب بأن يرجو رحمته:

1 ـ سنن إبي داود، أبو داود 994 ـ الصلاة.
2 ـ صحيح مسلم، مسلم 4474 ـ فضائل الصحابة.
3 ـ صحيح مسلم، مسلم، 4863.
4 ـ مسند أحمد، أحمد، 19692.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: (اللَّهُمَّ **رَحْمَتَكَ** أَرْجُو فلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ)[1].

10 ــ تعليمه ﷺ المؤمنين دعاء الرقية بأن يترل الرحمة:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنِ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا أَوِ اشْتَكَاهُ أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ: (رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ كَمَا **رَحْمَتُكَ** فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلْ **رَحْمَتَكَ** فِي الأَرْضِ اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ أَنْزِلْ **رَحْمَةً** مِنْ **رَحْمَتِكَ** وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ فَيَبْرَأَ)[2].

11 ــ تعليمه ﷺ المؤمنين دعاء الحاجة بأن يسألوه موجبات رحمته:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللَّهِ حَاجَةٌ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلْيَتَوَضَّأْ فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ ثُمَّ لِيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ لِيُثْنِ عَلَى اللَّهِ وَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ لِيَقُلْ:

(لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ **رَحْمَتِكَ** وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَالسَّلاَمَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ لاَ تَدَعْ لِي ذَنْبًا إِلاَّ غَفَرْتَهُ وَلاَ هَمًّا إِلاَّ فَرَّجْتَهُ وَلاَ حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلاَّ قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ)[3].

12 ــ تعليمه ﷺ المؤمنين الدعاء بالرحمة عند الدخول إلى المسجد:

عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلِ: (اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ **رَحْمَتِكَ**)، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلِ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ)[4].

13 ــ تعليمه ﷺ المؤمنين أن لا ينسوا عن الذكر الدعاء بالرحمة:

عن عبدالله بن عمر قال: رأيت رسول الله ﷺ يعقد التسبيح بيمينه، رواه أبو داود وروت بسيرة إحدى المهاجرات رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ :

(عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن فتنسين **الرحمة** واعقد بالأنامل فإنهن مسؤولات ومستنطقات)[1].

---

1 ـ سنن أبي داود، أبو داود، 4426.
2 ـ سنن أبي داود،أبو داود، 3394 ـ الطب.
3 ـ سنن الترمذي، الترمذي، 441ـ الصلاة.
4 ـ صحيح مسلم، مسلم، 1165 ـ صلاة المسافرين.

14 ــ تعليمه ﷺ المؤمنين دعاء قضاء الدين بأن يغنيهم الله عن رحمة من سواه:

وأخرج الطبراني عن معاذ أن النبيﷺ قال لـــه ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك من الدين مثل صبر أداه الله عنك: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْـــزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَـــدِيرٌ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطي مـــن تشاء منهما وتمنع من تشاء **ارحمني رحمة** تغنيني بها عن **رحمة** من سواك)[3].

واستفتاه ﷺ رجل فقال: لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا فعلمني ما يجزيني، قال قل: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يا رسول الله هذا الله فما لي؟ قال: قل اللهم **ارحمني** وعافني واهدني وارزقني) فقال: هكـــذا بيده وقبضها، فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد ملأ يده من الخير. ذكره أبو داود[4].

---

1 ـ الوابل الصيب من الكلام الطيب، ابن القيم، 1/ 222، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط1، 1405هـ /1985م.

2 ـ آل عمران (26 ـ 27).

3 ـ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: سعيد المندوب، 2/ 436، دار الفكر ـ بيروت، ط1، 1416هـ/ 1996م.

4 ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، ، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، 309/4 ، دار الجيل ـ بيروت، 1393هـ / 1973م.